

في فن الأدب

حدث رواية الأخبار أن حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري تزوجت الحرث بن خالد بن العاصي بن هشام وكان شيخاً هرمًا فلم تطلب لها الإقامة معه وكانت تسكن دمشق فقالت في ذلك:

فقدت الشيوخ وأشياهم ... وذلك من بعض أقواله

قولها (فقدت) إنشاء وليس بخبر: فهي تدعو على الشيوخ المستنين بأن تفقدهم عن آخرهم وتفقد كل من يتشيع بهم.

ولعل مرادها بالمتشيعين لهم تناسرة السوء الذين يسعون لدى الأسر في تزويج فتياتهم من أولئك الشيوخ الطاعنين في السن فيقعن من عشرتهم في جحيم ومن العيش معهم في بلاء مقيم، ثم قالت حميدة أن دعاءها على الشيوخ هو من بعض أقوالها فيهم أي هو أقل ما يجب أن نقوله في حقهم وفي إظهار النفرة منهم والزراية عليهم.

تري زوجة الشيخ مغسومة ... وتسمي لصحبته قاله

(قالية) مبغضة كارهة. والشيخ هنا لم ترد به حميدة الواحد من شيوخ العلم الديني ولو كان شاباً حسبنا اصطلاح عليه المتأخرون وإنما أرادت به المعنى النغوي وهو الرجل الذي شاخ وطعن في السن وبلغ من الكبر عتياً عالماً كان أوجاهلاً. وللشيخ سبعة جموع استوفاهم بعضهم في هذين البيتين فقال:

مشايخ مشيوخاء مشيخة كذا ... شيوخ وأشياخ وشيخان فاعلنا

ومع شيخة جمع لشيخ وصفراً ... بضم وكسر في شيخ لتفهننا

قوله (شيخة) على وزن غنية ولكنه سكن الياء لضرورة الشعر وقوله (بضم وكسر) يريد أنك إذا صغرت كلمة (شيخ) فقلت (شيخ) جاز لك إذ ذاك أن تضم الشين وهو الأصل في الاسم المصغر وأن تكسرها مراعاة لليائين التي بعدها ليسهل النطق بالنطق ويخف على السمع.

نكحت الهشامي إذ جاءني ... فيالك من نكحة غاوية

تلوم نفسها على تسرعها بزواج ذلك الرجل فهي لم تتريث إن رضيت به مذ جاءها خاطباً ثم أظهرت الدهشة والعجب من هذا الزواج الذي كلفها ثمناً غالياً: عمراً خسرتة وشباباً أبليتة وجمالاً ابتذلتة ومستقبلاً أضاعته:

له ففتحان كصنان ... التيوس أعيأ على المسك والغالية

(الذفر) بفتحين كل رائحة شديدة سواء كانت طيبة أو خبيثة: يقال مسك أذفر ورجل أذفر بكسر ألفاء له صنان وخبث ريح. والصنان بضم الصاد الرائحة الكريهة تنبعث من تحت الإبط واستعملتها الشاعرة هنا في رائحة التيوس بطريق النجوز. و (الغالية) ضرب من الطيب مركب من جملة أجزاء، تقول أن لزوجها ريحاً خبيثاً أعيأها الأمر في إزالتها وتخفيف شرها وقد استعانت على ذلك وعالجته بأنواع الطيوب فلم تفلح.

وإن دمشق وفتياها ... أحب إلي من الجالية

الجلأ بفتح الجيم الخروج من بلد إلى آخر. ويقال جلا القوم عن الموضع الفلاني إذا تفرقوا عنه. والقوم الذين يخرجون هذا الخروج يستون جالية ويسمى أهل الذمة جالية لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن جزيرة العرب. ومراد الشاعرة بالجلالية هنا أولئك

الذين كانوا يجلبون عن ديارهم في الحجاز ويسكنون دمشق لذلك العهد ويظهر أن لدمشق في نفوس القوم إذ ذاك مكانة عالية فكانوا يتنافسون بالعيش فيها ويضربون المثل بحسن عشرة أهلها. ولم يزل هذا أدبها إلى اليوم فهم إذا أرادوا أن يصفوا إنساناً بالذوق وطيب العشرة وكرم الطباع قالوا أنه (مدمشق) على وزن اسم المفعول أي أنه كأهل دمشق ذوقاً وأدباً كما يقولون في مصر فلان (ابن بلد) يعنون به ما نعيده نحن بكلمة (مدمشق) ويستعمل الأوروبيون في هذا المعنى كلمة (جنتلمان) الإنكليزية. وقد ذكر سليم أفندي سر كيس في بعض أعداد مجلته: أن جريدة التينس رأت أن تضع لكلمة (جنتلمان) الإفرنجية لفظة عربية أو معربة فقالت في وصف أحد سلاطين آل عثمان القدماء أنه كان يسمى (محمود الشلبي) وفسرتها لقرائها بقولها أن معنى الشلبي هو (الجنتلمان) ثم قال سليم أفندي: وما دمنا لليوم لم نقع على كلمة ترادف (الجنتلمان) في لغتنا العربية فنعرض بم رضيته لنا التينس أي من استعمال كلمة (الشلبي) بمقام (الجنتلمان) وكلمة شلبي بالشين العربية محرفة عن (جلبي) بالجميم الفارسية ذات النقط الثلاث وهي كلمة تركية معناها الشريف واللطيف والظريف. وقد غاب عن سليم أفندي أن يذكر في معاني (الجنتلمان) كلمة (مدمشق) كما غاب عنه أن يذكر أيضاً كلمة (عايق) التي يستعملونها في ذلك المعنى نفسه. ولا أذكر ما هو أصل اشتقاق (عايق) وكيف استعملت في هذا المعنى في لغتنا العربية.

وإن كانت حميدة ذكرت دمشق في أثناء التهكم بزوجها والزراية عليه فإن شاعراً آخر ذكر دمشق خديها واعلني أن ليلة ... تمر بعودي نعيشها ليلة القدر

أكلت دماً إن لم أرعك بضرة ... بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

دمشق منادى: يقول خذي يا دمشق زوجتي التي هربت من بيتي إليك واعلمي أن الليلة تموت فيها تلك الزوجة الغادرة وأراها فيها محمولة على أعواد نعشها هي عندي بمزلة ليلة القدر.

ثم أرى أن توقع الخلاص منها بانتظار موتها أمر يطول شرحه، فالتفت إلى الزوجة الناشزة واستحضرها في ذهنه وجعل يتهددها ويتوعدها فدعا على نفسه بأن يموت أحد الأعداء عليه ويأكل ديتة إن كان لا يتزوج ويدخل عليها الدعر ويضرم في قلبها نار الغيرة بانتقاء ضرة لها تكون أجمل منها، وأجمع لصفات الحسن.

وفي البيت الثاني كنياتان من أشهر الكنيات التي يتشئل بها البيانيون في كتبهم وهما: أكلت دماً) و (بعيدة مهوى القرط).

ومن أخلاق العرب أنهم يأنفون من ترك أخذ الثأر اكتفاءً بأخذ الدية من جهال وأنعام ويكونون عن هذه الدية الحيوانية بالدم ويعبر بعضهم بعضاً بأكلها والرضا بها فشاعرنا يقول أنه إن لم يتزوج على امرأته تلك التي هربت إلى جنق فالله يبتليه بهذه الضعة والخزاية والعار الذي لا يحصى وهي أن يأكل دية قريبه بدل أن يأخذ بثأره فيقتل من قتله أما الكناية الثانية فهي قوله في صفة الضرة أنها بعيدة مهوى القرط فهو يصفها بالطول: إما طول العنق أو طول القامة. إذ أن مهوى القرط موضع هويه وسقوطه وهو إما الكتف فالطول للعنق. أو الأرض فالطول للقامة وقوله في صفتها (طيبة النشر) أي طيبة الرائحة. وقوله مخاطباً لدمشق دمشق خذيها يشعر بأن لهذه البلدة مزية أو معنى يجتذب القلوب إليها ويتزل الرحال لديها.

وإنما هدد ذلك الشاعر زوجته الناشزة بما هدها به لكونه يعلم مبلغ غيرة النساء
وجزعهن من الضرة، وأبلغ ما قيل في ذلك قول الآخر:

خبروها بأني قد تزوجت ... فظلت تكلم الغيظ سراً

ثم قالت لأختها ولأخوى ... جزعاً ليته تزوج عشراً

يقول أنها عذمت أولاً على الصبر وكنم الغيظ وأسرار الغيرة في نفسها ثم غلبتها نفسها
فباحث ببعض الشيء لكنها مع ذلك ظلت متجندة متناسكة متظاهرة بقلة المبالاة فقالت
لأختها ولصاحبة لها أخرى ليت زوجي بدل الزوجة الواحدة تزوج عشر زوجات فأبى
كراهة له غير راغبة في القرب منه.

وأشارت إلى نساء لديها ... لا ترى دونهن للنسر سترًا

يقول ثم ارتقى الحال بها واستولت الغيرة عليها فلم يعد يمكنها إخفاء الخبر الذي أضناها
وأطار الرفاد عن عينيها: فقالت إلى نساء كن في مجلسها تأمن جانبهن بحيث لا ترى
ضرورة لستر هذا السر عنهن وخاطبتهن مشيرة إلى قلبها تقول:

يا لقلبي كأن ليس مني ... وعظامي كأن فيهن فترا

من حديث نما إلى فطيع ... خلّت في القلب من تلطيه حمرا

تريد بكون قلبها ليس منها أنه أصبح كتلة نار من شدة الغيظ والكمد فهو ليس منها
لأنها هي لحم ودم لا جهنم ولا أتون وفي عظامها فتر أي ضعف ووهن وانكسار ومعنى
البيتين واضح لا يحتاج إلى بيان وتفسير. على أننا نشرح في الأحايين أحياناً تكون جليئة
المعنى لا غموض فيها حباً في تنبيه الطالب أو الناشئ إلى حل الشعر وتحويل معناه إلى نشر
وبسط ألفاظه ومعانيه بسطاً يقوي في نفس الطالب ملكة المقدرة على تأليف الكلام

وحسن التصرف فيه وتأدية المعنى الواحد بالطرق المختلفة والأساليب المتعددة وهذه هي الطريقة التي تعتمد إلى منظوم فتحله إلى كلام منثور من أحسن الطرق في تحصيل فن الإنشاء وتقوية ملكة الكتابة في النفس.

وقد وضع ابن الأثير صاحب (المثل السائر) كتاباً لطيف الحجم سماه (حل المنظوم) شرح فيه هذه الطريقة وإبان وجه الفائدة منها لطلاب ذلك الفن.

هذا الذي تزوج على امرأته رجل يحب الانتقام ويريد لنفسه شفاء غيظها وتبريد غلها أما زوج أنيسة فقد رأى أن قطع علاقته بالمرأة مع أنيسة خير له ولها من تحمل مشاكل الضرة فطلقها وقال:

رحلت أنيسة بالطلاق ... وعثقت من رق الوثاق

أنيسة بهيئة التصغير، يقول أنها رحلت هي إلى دار أبيها وتخلصت أنا من الرق والأسر لها، ومن ثم قالوا في المرأة سيئة الأخلاق أنها (غل قمل وجرح لا يندمل) الغل واحد الأغلال وهو طريق من حديد أو جلد، يجعل في اليد أوفي العنق. وقمل بكسر الميم ذوقمل أي فيه قمل فيؤذي الأسير ويحرمه لذيق الوثن فالمرأة السوء في إرهابها زوجها مثل هذا الغل:

بانت فلم يَألم لها ... قلبي ولم تبك المآقي

ودواء ما لا نشتهي ... النفس تعجيل ألقاق

أرسل هذا البيت مثلاً سائراً وحكمة بالغة فهو ينصح لكل من ابتلي بما لا تشتهي نفسه أن يعجل فيفارقه ويقصيه عنه. وقد يقال أن هذا كان منه لجرد هو ي النفس ونزاع

الشهوة في لؤم وخسة وإن كان لضرورة قاضية وليكون في بيته ذا عيشة راضية فلا عتب ولا لؤم:

لولم أرح بفراقها ... لأرحت نفسي بالأباق

وصبرت نفسي لا ... أريد حليلة حتى التلاقي

(أرح) مبني للمجهول من الراحة. وأصل الأباق فرار العبد من بيت سيده واستعمله هنا في مطلق الهروب. ومراده بالتلاقي اليوم الذي يموت فيه فيلاقي فيه أجله أو يلاقي وجه ربه. يقول: لولم تيسر لي أسباب طلاق أنيسة وبقيت جائحة في وجهي جثوم الأفعى. لكنت فررت منها فرار الأبق. وفارقتها فراق غير الوامق.

وكنيت بذلك أستريح من شرها، ثم أحرم النساء من بعدها لكن قد أسعدني الحظ بتسهيل أسباب طلاقها بالطنوع والرضا فشكراً لتدبير القضاء وعفا الله عنا مضي.

دمشق:

المغربي

الحصى

طبيعاً

عرف العرب مرض الحصى مثل غيرهم من الأمم القديمة وعالجوه بالماء وغيره من المنظفات ووصفه أطباؤهم وألفوا فيها رسائل ومقالات ضافية من أهمها كتاب (الحصيات) خمس مقالات لم يوجد أجود منه، وعلاجاته مجربة. ألفه إسحق بن سليمان الإسرائيلي الذي عمر فوق المائة ولم يتزوج ولا أعقب فعير على ذلك فقال: إن لي أربعة كتب تحيي ذكرى أكثر من الولد وهي كتاب الحصيات و (الأغذية والأدوية) و (البول) و